ضبط المفاهيم الشرعية بين العقيدة والسلوك

الاثنين 12 يناير 2026 08:00 م

يعالج الدكتور العلامة الشيخ يوسف القرضاوي في كتابه الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، ظاهرة اضطراب المفاهيم الإسلامية لدى الشباب، والناتجة عن عدم التمييز بين مراتب الدين والمصطلحات، مما يؤدي لنتائج خطيرة في الحكم على الناس وتكييف العلاقة معهم. يوضح الكاتب الفرق الدقيق بين "مطلق الإيمان" و"الإيمان المطلق"، مبيناً أن نفي الإيمان في بعض النصوص الشرعية يتوجه لنفي الكمال الواجب لا نفي أصل الإيمان، كما يفرق بين الإسلام كاستسلام ظاهري والإيمان كتصديق قلبي، مع التأكيد على تلازمهما.

وينتقل العلامة لتفكيك مصطلحات "الكفر" و"الشرك" و"النفاق"، مقسمًا إياها إلى نوعين رئيسيين: أكبر يخرج صاحبه من الملة (وهو المتعلق بالاعتقاد والجحود)، وأصغر يوجب الوعيد ولا يخرج من الملة (وهو المتعلق بالمعاصي والسلوك). ويستشهد الكاتب بآراء محققين كابن القيم وابن حجر لتأصيل هذه الفوارق، بهدف حماية المجتمع من فوضى التكفير وضبط الموازين الشرعية بدقة بعيدًا عن الغلو أو التفريط.

وقد أدى هذا الغبش في فهم الإسلام، وعدم وضوح الرؤية لأصول شريعته، ومقاصد رسالته، إلى التباس كثير من المفاهيم الإسلامية، واضطرابها في أذهان الشباب أو فهمها على غير وجهها. [ص: 76]

ومنها: مفاهيم مهمة يلزم تحديدها وتوضيحها لما يترتب عليها من آثار بالغة الخطورة في الحكم على الآخرين وتقويمهم، وتكييف العلاقة بهم، وذلك مثل: مفاهيم الإيمان والإسلام، والكفر والشرك، والنفاق والجاهلية ونحوها.

الخلط بين الحقيقة والمجاز وأثره في اضطراب الموازين

إن قوما لم يتذوقوا اللغة ولم يدركوا أسرارها، خلطوا في هذه المفاهيم بين الحقيقة والمجاز، فاختلطت عليهم الأمور، والتبست عليهم السبل، واضطربت الموازين. إنهم لم يفرقوا بين الإيمان المطلق ومطلق الإيمان، وبين الإسلام الكامل ومجرد الإسلام. ولم يميزوا بين الكفر الأكبر المخرج عن الملة، وكفر المعصية. ولا بين الشرك الأكبر والشرك الأصغر، ولا بين نفاق العقيدة ونفاق العمل، وجعلوا جاهلية الخلق والسلوك كجاهلية العقيدة سواء.

ضرورة توضيح المفاهيم وخطورة الغبش فيها

ومن هنا يجب إلقاء بعض الضوء على هذه المفاهيم - التفصيل موعده كتابنا المرتقب عن قضية التكفير إن شاء الله - حتى لا يفضي الغبش فيها إلى خطر جسيم.

مفهوم الإيمان

فالإيمان إذا أطلق ينصرف إلى الكامل، وهو ما يجمع بين تصديق الجنان، وإقرار اللسان، وعمل الجوارح والأبدان، وهذا هو الإيمان المذكور في مثل قوله تعالى: (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم..) (الأنفال:2)

وقوله: (قد أفلح المؤمنون ..) (المؤمنون:1) .

وقوله: (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون) (الحجرات:15) [ص: 77]

وفي مثل قوله صلى الله عليه وسلم : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه فليقل خيرا أو ليصمت) .

نفي الإيمان ونفي كماله لا أصله

وهو المنفي في مثل قوله صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)

وقوله: (لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن)

فالنفي هنا ينصب على كمال الإيمان لا على أصل الإيمان، كما تقول، ليس برجل من لا يغار على أهله، وليس بعالم من لم يعمل بعلمه، فالنفي هنا لكمال الرجولة لا لأصلها، ولكمال العلم لا لأصله، وهذا الإيمان الكامل هو الذي أخبر عنه الحديث: أنه بضع وسبعون شعبة والحياء شعبة من الإيمان

شعب الإيمان وأصل الشجرة وفروعها

وهو الذي ألف فيه الإمام أبو بكر البيهقي كتابه " الجامع لشعب الإيمان " وهي شعب تشمل أصل الشجرة، وهي العقائد، وتشمل الفروع والثمار من العبادات والمعاملات والأخلاق والآداب

فمن ضيع الأصل بالكلية، فقد انتفى عنه مطلق الإيمان، ومن ضيع بعض الفروع وأصل الإيمان باق، فقد انتفى عنه من كمال الإيمان بقدر ما ضيع منها، ولكن لا نحكم عليه بالكفر

وأصل الإيمان هو ما جاء في حديث جبريل: الإيمان: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر).

أقوال السلف والفرق في تعريف الإيمان

وقد ذكر الحافظ ابن حجر في " الفتح " أن السلف قالوا: الإيمان هو اعتقاد بالقلب، ونطق باللسان، وعمل بالأركان، وأرادوا بذلك أن الأعمال شرط في كماله

ومن هنا نشأ لهم القول بأنه يزيد وينقص

والمرجئة قالوا: هو اعتقاد ونطق فقط

والكرامية قالوا: هو نطق فقط

والمعتزلة قالوا: هو العمل والنطق والاعتقاد

والفارق بينهم وبين السلف: أنهم جعلوا الأعمال شرطا في صحته، والسلف جعلوها شرطا في كماله

قال: وهذا كله بالنظر إلى ما عند الله تعالى، أما بالنظر إلى ما عندنا، فالإيمان الإقرار فقط فمن أقر أجريت عليه الأحكام في الدنيا ولم يحكم عليه بكفر، إلا إن اقترن به فعل يدل على كفره، كالسجود للصنم فإن كان الفعل لا يدل على الكفر كالفسق، فمن أطلق عليه الإيمان فبالنظر إلى إقراره، ومن نفى عنه الإيمان فبالنظر إلى كماله، ومن أطلق عليه الكفر، فبالنظر إلى أنه فعل فعل الكافر، ومن نفى عنه فبالنظر إلى حقيقته اه

مفهوم الإسلام

والإسلام قد يطلق على مجرد إعلان الشهادتين، وهما باب الدخول في الإسلام، فالكافر إنما يدخل الإسلام، ويصبح في عداد المسلمين بمجرد نطقهما قبل أن يؤدي الصلاة أو الزكاة أو غيرهما، إذ هذه العبادات لا تقبل إلا من مسلم، وإنما يكفي أن يقر بهذه الفرائض ويلتزم بها، وإن لم يؤدها بالفعل

وهذه الشهادة هي التي تعصم دم الإنسان وماله، كما في الحديث: (فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله).

الإسلام باعتباره الأركان الأساسية

وقد يطلق الإسلام على الأركان الأساسية فيه، وهي التي جاء فيها حديث ابن عمر المشهور: (بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت).

وهي التي فسر بها رسول الله " الإسلام " في حديث جبريل المعروف حين قال: (أخبرني عن الإسلام فقال: الإسلام: أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤتي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان).

الفرق بين الإيمان والإسلام عند الاقتران والانفراد

وهنا نجد في حديث جبريل الفرق بين مفهومي الإيمان والإسلام، أما إذا اقترنا في الذكر، فكل واحد منهما يتضمن الآخر، وهما متلازمان في الواقع، فلا يوجد إيمان بلا إسلام، ولا إسلام بلا إيمان

فالإيمان يتعلق بالقلب، والإسلام يتعلق بالجوارح والظواهر، وهذا ما جاء في الحديث: (الإسلام علانية، والإيمان في القلب) [1]

وهو ما تدل عليه آية سورة الحجرات: (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم).

الإسلام الكامل في النصوص

وقد يطلق الإسلام في موضع آخر، ويراد به أيضا الإسلام الكامل، كما في حديث: (الإسلام أن يسلم قلبك لله، ويسلم المسلمون من لسانك ويدك)

وحديث: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)

وحديث: (وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما)، وغيرها من الأحاديث

مفهوم الكفر (الكفر بمعنى الجحود والتكذيب)

أما الكفر فقد يرد في لسان الشرع بمعنى الجحود والتكذيب لله ولرسالاته، كما في قوله تعالى:

(ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا) (النساء:136)

الكفر بمعنى الردة والخروج من الإيمان

وقد يطلق بمعنى الردة عن الإسلام، والخروج من حظيرة الإيمان، كما في قوله تعالى: (ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين) (المائدة:5)

وقوله: (ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) (البقرة:217).

الكفر بمعنى المعاصي العملية

وقد تطلق كلمة الكفر على بعض المعاصي العملية التي لا تحمل إنكارا ولا جحودا ولا تكذيبا لله ورسوله

تقسيم الكفر إلى أكبر وأصغر

يقول العلامة ابن القيم في كتابه " مدارج السالكين " : الكفر نوعان: أكبر وأصغر

فالكفر الأكبر: هو الموجب للخلود في النار

والأصغر: موجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود

كما في الحديث: (اثنتان في أمتي، هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة)

وقوله في السنن: (من أتى امرأة في دبرها فقد كفر بما أنزل على محمد)

وفي الحديث الآخر: (من أتى كاهنا أو عرافا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد)

وقوله: (لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض)

تفسير آية الحكم بغير ما أنزل الله

وهذا تأويل ابن عباس وعامة الصحابة في قوله تعالى: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) (المائدة:44)

قال ابن عباس: " ليس بكفر ينقل عن الملة، بل إذا فعله فهو به كفر، وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر "

وكذلك قال طاووس، وقال عطاء: هو كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق

ثم ذكر بقية الأقوال وتأويلاتها كما وردت، إلى قوله: قال ابن القيم: (والصحيح: أن الحكم بغير ما أنزل الله يتناول الكفرين، الأصغر والأكبر، بحسب حال الحاكم□□□)

مفهوم الشرك

الشرك الأكبر

والشرك كذلك منه ما هو أكبر، وهو دعاء إله أو آلهة مع الله أو من دون الله، وهو الذي جاء فيه قوله تعالى: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) (النساء:48).

الشرك الأصغر

ومنه ما هو أصغر، مثل قوله صلى الله عليه وسلم: (من حلف بغير الله فقد أشرك) [2]

وقوله: (من علق - أي: تميمة - فقد أشرك) [3]

وقوله: (إن الرقى والتمائم والتولة شرك) [4]

مفهوم النفاق

النفاق الأكبر **(**نفاق العقيدة**)**

وكذلك النفاق، منه النفاق الأكبر، نفاق العقيدة، وهو: أن يبطن الكفر، ويظهر الإيمان خداعا وكذبا□□□ إلى قوله تعالى: (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا) (النساء:145).

النفاق الأصغر **(**نفاق العمل**)**

وهناك النفاق الأصغر، وهو نفاق العمل، بمعنى أن يتصف المرء المسلم بصفات المنافقين وأخلاقهم، ولكن قلبه مؤمن بالله ورسوله وباليوم الآخر□

وهذا ما جاءت به الأحاديث مثل: (آية المنافق ثلاث□□□) [5]

وحديث: (أربع من كن فيه كان منافقا خالصا□□□) [6]

وهذا النفاق هو الذي كان يخافه الصحابة والسلف على أنفسهم، وقالوا: ما أمنه إلا منافق، ولا خافه إلا مؤمن!